

جهود علماء المغرب في الحفاظ

على مذهب الإمام مالك في العهد العبيدي

عبد المالك مغشيش

جامعة الطارف

مقدمة:

حاول العبيديون نشر مذهب الشيعة الإسماعيلية بشتى الطرق بين أفراد الشعب المغربي، ومحو المذهب المالكي، منذ أن وطأت أقدامهم أرض المغرب، و إحدائهم التغيير الجذري في المنظومة الفكرية و المذهبية للمنطقة انطلاقا من الدعم الذي وجدوه من قبل قبائل كتامة و صنهاجة، بالرغم من الترغيب و التهيب الذي مورس على أهل المنطقة من أجل التغيير و مساندة النظام الجديد الذي حل بالمنطقة منذ سنة (296هـ) وقضائه على الدولة الأغلبية السنية العباسية الولاء، لكن استقرارهم بالمنطقة لم يعمر طويلا جراء المقاومة الكبيرة والرفض القاطع لممارساتهم الغريبة عن تقاليدهم الدينية التي اكتسبوها مع الفاتحين الأوائل ومع البعثات العلمية الفقهية الأولى التي وفدت على المنطقة منها بعثة "عمر بن عبد العزيز" سنة (100هـ)، و التي من خلالها وغيرها اكتسب سكان المنطقة دينهم الذي ارتضوه لأنفسهم، ثم اتخذوا مذهب الإمام مالك إمام أهل المدينة لهم مذهباً ومنهجاً، هذا ما جعل العبيديين يغادرون المنطقة على وقع الثورات المتواصلة و المتواترة وجهود أئمة و علماء وفقهاء المالكية بالمنطقة بشتى الطرق و الأشكال فتارة باللسان و أخرى بالسنان، فتعددت مقاومتهم بدء بالحوار و المناظرات و المنافرات و الأدب و الشعر و التأليف... إلى المشاركة في الحروب التي عرفتها المنطقة كما هو الحال لثورة "أبي يزيد الخارجي"، ومن علماء هذا العهد، نجد: ابن أبي زيد القيرواني (310-386 هـ) وهو مصنف مكثر له من الكتب: الرسالة (في الفقه)، كتاب النوادر، و الفقيه المؤرخ أبو العرب (250-333 هـ) له طبقات علماء إفريقية، وكتاب عباد إفريقية، ومسند حديث مالك وغيرها، وربيح القطان (288 هـ-334 هـ) وكان ممن عقد الخروج لغزو العبيديين، فقتل، وأبو عثمان سعيد بن محمد المعروف بابن الحدّاد (219 هـ-302 هـ) من أشهر فقهاء المالكية في الجدل والمناظرة وله مناظرات كبيرة مع دعاة الشيعة، إسحاق السبائي (أبو إسحاق الفقيه)، وأبو القاسم بن محرز، وأبو بكر ابن اللباد (ت 333هـ)، وأبو جعفر أحمد بن نصر الداودي المسيلي وغيرهم ممن ساهم في الحفاظ على مذهب الإمام مالك بأرواحهم قبل ألسنتهم و أقلامهم.

وبكل صور المقاومة التي عرفتها المنطقة، لم يهناً للعبيديين المقام بالرغم من سعيهم الحثيث في ذلك بشتى الطرق، لكنهم في الأخير قرروا المغادرة إلى مصر بعد أن استولوا عليها فكان خروجهم سنة (362هـ)، ليتروا المغرب بأكمله لحلفائهم الصنهاجين الذين بدورهم ساروا على منوال سابقهم بادئ الأمر إلى أنهم خلعوا الدعوة العبيدية لما

سنحت الفرصة لذلك وانقلبت الموازين ليعود مذهب الإمام مالك إلى ربوع المغرب الإسلامي، فكان أول من قطع الدعوة للعبيديين هو "حماد" أمير الدولة الحمادية سنة تأسيسه لدولته (405هـ)، ثم تبعه "المعز بن باديس الصنهاجي" الذي قضى على المذهب الإسماعيلي نهائياً بالمغرب الإسلامي وكان كل هذا بفضل تضحيات عدد هائل من الفقهاء والعلماء وسنقف في مداخلتنا للكشف عن طرق جهود ومساعي علماء المغرب في الحفاظ على المذهب المالكي و محاولة الوقوف عند أبرز علماء المالكية في هذه الفترة، وذكر تأليفهم الكثيرة التي حفظت أسس المذهب.

- أسباب الصراع المذهبي في القرن الرابع الهجري :

ما إن حلّ الفكر الشيعي بأرض المغرب حتّى بدأ الدعوة يثون دعواتهم لنصرته والتمكين له ،بعد أن وجدوا استحابة لدى قبائل البربر الذين يمتازون بحبهم الشديد لكل ما هو ديني ومتعلقين بحب الرسول (ص) وآل بيته الأطهار ،والساخطين على حكام المغرب المستبدين. كما شعر الأمراء العبيديون بخطر المذاهب المناوئة لهم فقاوموها ، وحاربوا أهلها محاربة تتراوح بين الشدة أحيانا والرحمة تارة أخرى هذه الأخيرة نشأ في ظلها صراع فكري كبير بين المذاهب والتيارات المختلفة ، كان بعضها صادقا نزيها وبعضها مريبا مغرضا هداما ،وكان حيننا نافعا مخلصا للفكر والحياة الثقافية بوجه عام وحيننا آخر مضرا فيه غش وتشويه لحقائق الإسلام والعرب وللتاريخ والعلم ،وقد مثل الجانب المشرق النافع النزيه في هذا الصراع رجال أدباء و علماء وفقهاء وقد لقي عدد من هؤلاء حتفهم على أيدي الأمراء بسبب نزعتهم و مذهبهم وكان أمراء بني عبيد لا يتساحون فيما يتصل بالخلافة وحق العبيديين فيها.ولعل هذه الصراعات والانتهاكات تعود أساسا إلى إيمان الشيعة الإسماعيلية بمجموعة من المبادئ،والتي تتمثل في:

-أولها:فكرة أن إمامة المسلمين الشرعية إنما هي لعليّ (رضي الله عنه)⁽¹⁾.و أبنائه المنحدرين من السيدة "فاطمة الزهراء" بنت رسول الله ، وكل إمام منهم وصيّ لسلفه طبقا للترتيب الإلهي في خلافته أو ولايته الربانية على أمور الأمة ،وقد بدأ الرسول صلى الله عليه وسلم فأوصى في اعتقادهم بخلافة "عليّ" وإمامته بعده ،وروه في ذلك أحاديث حملوها هذا المعنى ، ووجهوا بعض الآيات القرآنية نفس الوجهة مثل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذِنَ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾⁽²⁾.

¹علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ويلقبونه بالمرتضى، وكنيته أبو الحسن، وهو رابع الخلفاء الراشدين وصهر رسول الله، قتله الضال عبد الرحمن بن ملجم في مسجد الكوفة. (ينظر: ممدوح الحربي: فرق الشيعة، دار المعارف، مصر، د ط، د ت، ص 25).

²فاطر: الآية 32.

-المبدأ الثاني: هو طاعة الإمام سواء دعا لنفسه سرا أو علانية، فطاعته جزء لا يتجزأ من إيمان الإسماعيلية، فهم كما يؤمنون بالله ورسوله يؤمنون بإمام العصر ويفوضون أمورهم إليه ويبدلون أنفسهم من دونه فريضة مقدسة ينضوون تحت لوائه ويبرؤون من أعدائه ويوالونه أصدق الولاء .

-المبدأ الثالث: هو عصمة أئمتهم ومن ذلك قول "المنصور" في رسالته لقبيلة كتامة: « وقد تتابعت إليكم، معاشر كتامة ، كتبنا ورسلنا ، تحضكم على ما فيه رضى سيدكم ومولاكم مولانا أمير المؤمنين ، المقرون رضاه برضا رب العالمين»⁽³⁾.

-المبدأ الرابع: الاتساع بالتأويل في القرآن الكريم وآياته .

-المبدأ الخامس: الأئمة يتوالون في الأدوار منذ آدم وكل دور يتكون من سبعة .

-المبدأ السادس: إطلاق كل صفات الذات الإلهية على أئمتهم .

-المبدأ السابع: مبدأ سلمي وهم يلغون الاجتهاد والأخذ بالقياس في الشريعة مما هو معروف عند أهل السنّة والجماعة ، إذ جعلوا المرجع إلى الإمام ، وهو معصوم من الخطأ⁽⁴⁾.

أما مبادئهم في الفقه والتي استخدمت بصورة واسعة في حياتهم اليومي : فهي:

-مناداتهم في الآذان بحجى على خير العمل .

-ميراث البنت لكل مال أبيها إذا لم يكن لها أخ.

-مسح القدمين بالماء في الوضوء عوض غسلهما .

-لهم دعاة في كل بلد وللدعاة جميعا رئيس يسمى داعي الدعاة ، وباب الأبواب ويليه الحجة وهو كبير الدعاة في الإقليم ، ويأتي بعد ذلك الدعاة والنقباء⁽⁵⁾.

³ محمد اليعلاوي، الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1986، ص383-384.

⁴ محمد كامل حسين : طائفة الإسماعيلية، دار المعارف، مصر، د ط، 1966، ص85-97 .

⁵ ممدوح الحربي: المرجع السابق، ص179.

هذا ما ولد وأبرز منازعات فكرية بين رجالات الفكر والأدب حول موضوعات أدبية علمية وفقهية، خاصة ما تعلق بالإمامة أو الخلافة الفاطمية التي نادى بخلافة دينية وراثية تقوم على أساسين هامين:

-الأساس الأول:هو العلم اللدني (الإلهي) الموروث عن النبي(ص) عن طريق "علي بن أبي طالب" (كرم الله وجهه) ثم أولاده من بعده من نسل "فاطمة الزهراء" .

-والأساس الثاني:هو مسألة الوصية باعتبار أن الإمامة الفاطمية وراثية لوصية "علي بن أبي طالب" (كرم الله وجهه).

أما عن الأساس الأول ، فالإمام في نظر الشيعة عموما معصوم من الخطأ ، وطاعته جزء من الإيمان ، وهو المعلم الأكبر لأنه ورث العلوم اللدنية عن النبي عن طريق "علي بن أبي طالب" ثم أولاده من بعده إلى الفاطميين .

وهناك نوعان من العلم :« علم الظاهر وعلم الباطن ، أي ظاهر القرآن وباطنه (أي المؤول) .وقد علم "النبي" هذين النوعين من العلوم "علي بن أبي طالب" ، فأطلعه على السر المكنون والغامض المصون من العلوم وخفايا الكون . وكل إمام ورث هذه الثروة العلمية لمن جاء بعده . ولهذا كان الإمام معلما أكبر »⁽⁶⁾.

وقد أجاز قانون الوراثة الشيعي أن يتلقى أسرار العلم الديني من لم يبلغ الحلم بعد وعلى هذا الأساس كان من الممكن أن يلي الخلافة من كان قاصرا .

ولقد جرد الإسماعيلية « الله سبحانه وتعالى من كل صفة ، فتوحيد الله عندهم هو بأن ينفي عنه سبحانه جميع ما يليق بمبدعاته ومخلوقاته من الأسماء و الصفات . فأسماء الله الحسنى التي وصف الله بها نفسه في القرآن الكريم ، لا تقال لله تعالى بل تقال للعقل الكلي الذي تحدث عنه الفلاسفة . كذلك ألقوا على العقل الكلي أيضا اسم المبدع الأول »⁽⁷⁾ " فهو الخالق المصور الواحد القهار الجبار العزيز العلي القدير ... وأنه هو الذي أبدع لنفس الكلية أو المبدع الثاني . وجعلوا للنفس الكلية جميع الصفات التي للعقل الكلي ، إلا أن العقل الكلي كان أسبق إلى الوجود وإلى توحيد الله وتنزيهه »⁽⁸⁾ .

⁶ميكال يان دي حويه: القرامطة نشأتهم، دولتهم، وعلاقتهم بالفاطميين، ترجمة وتحقيق حسني زين، دار ابن خلدون ، ط2، 1980، ص148.

⁷برنارد لويس: أصول الإسماعيلية والفاطمية و القرمطية ، دار الحداثة بيروت، ط1، 1980، م، ص87.

⁸نفسه، ص102 .

ومن يحاول أن يقف عند دعاة الإسماعيلية، عليه أن يعرف أنّ معظمهم ليسوا مغاربة بل " من الشام وفارس - إيران- وكأنّ المغاربة لم يقبلوا على الدعوة الإسماعيلية، بل ظلت بعيدة عنهم"⁽⁹⁾، وهذا ما يدل على أن بلاد المغرب تمسكت بالسنة ولم تعتنق "المذهب الإسماعيلي"⁽¹⁰⁾، وإنما اعتنقته بعض القبائل والأفراد لا عن قناعة بل طمعا بملذات الحياة وتقربا من السلطة لمكاسب لها أو نكاية في الحكام السابقين، وهذا ما لاحظناه عند نجاح الدعوة بادئ الأمر ضد الأغلبية، لكن المغرب كأمة وشعب ظل متمسكا بسنته لسبب أن أهل المغرب بلد معتدل المزاج ذو فطرة سليمة لا يؤمن بالخرافات .

-وسائل العبيديين في القضاء على المذهب المالكي:

يعتبر أبناء المغرب العربي سواء قبل الإسلام أو بعده من أقوى الشعوب حرارة في عاطفة التدين. فلما جاء الإسلام قاومه البربر أول الأمر بشدة لم يعرف لها مثيلا في بقية الأقطار التي فتحوها، ولكن عندما استتب الدين الجديد وفهمه المغاربة على حقيقته تغيرت نظرهم إليه وشعروا بأن الإسلام ليس شبيها بالغزو الروماني. فكان اعتناقهم وتحمسهم له لا يقل حرارة وصدقا وإخلاصا عن مقاومتهم الأولى له.

فلما تولى الأغلبية الأمر في البلاد (184 - 296هـ) ساروا خطوات أوسع وأعمق في تركيز كل من التعاليم الدينية واللغة العربية، كما واجهوا في الحقل الاجتماعي عناية خاصة لتحضير البدو حتى يتشبهوا بما كانوا عليه من أسباب الفتن والفوضى وكانت لهم في هذا الميدان سياسة رشيدة حقا وبعيدة النظر. فكان المذهب الإسلامي السائد في عصر الأغلبية هو مذهب الإمام مالك، لما يتصف به من بساطة وتشدد في آن واحد تتفقان مع بساطة الجماهير وعاطفة التصلب الديني عند المغاربة .

أما في العهد العبيدي فقد اقتضت الملابس السياسية التي صاحبت نشوء دولتهم أن يتساحوا مع أهل السنة في بداية الأمر، حتى إذا ما قبضوا على زمام الأمور بيد قوية أخذوا يفرضون على الناس اعتناق المذهب الشيعي،

⁹ شوقي ضيف: الدول والإمارات بمصر، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1990. ص112 .

¹⁰ ينظر: القاضي النعمان: دعائم الإسلام في الحلال والحرام، القاضي النعمان: المهمة في آداب اتباع الأئمة. والقضايا والأحكام في أهل بيت رسول الله (وهو المصدر الأساسي في الفقه وعلم الكلام عند الشيعة الإسماعيلية)

« واستعملوا لذلك القوة حيناً والدعاية الشعبية أحياناً ، ومن ذلك اختراع أعياد ليست من صميم الدين بل هي مذهبية بحجة كعيد عاشوراء والمولد النبوي الشريف »(11).

كما عملوا على نشر المداحين أو القوالين، « فيقيمون المجالس والحلقات يفيضون فيها الحديث والقصص، بأسلوب شيق حول مكانة أبناء فاطمة بنت رسول الله (ص) و حول بطولة "عليّ بن أبي طالب" (رضي الله عنه) خصوصا وما تحل به من صفات تكاد تكون مقدسة عند الشيعة » (12). وما زالت آثار هذه القصص منتشرة إلى العصر الحاضر في مختلف أنحاء المغرب العربي.

كما حاول العبيديون نشر مذهب الشيعة الإسماعيلية بين أهالي المغرب الإسلامي، ومحو مذهب أهل السنة ومذهب الخوارج ، بالرغم من تشيع بعض القبائل الأمازيغية من مثل "كتامة" و "صنهاجة" ورفضته "زناته" وبقية متمسكة بالخارجية. واجبروا الناس على الدخول في دعوتهم فمن أجاب تركوه ، وربما ولوه بعض المناصب ، ومن رفض قُتل « كما فعلوا عقب أول جمعة خطبها "عبيد الله" بالقيروان ، فوعدت بين الدولة العبيدية وأهل القيروان مقتلة عظيمة ، فأمر الشيعي بالكف عن العوام »(13) ، وافتعل المناظرات الصورية فدارت على علماء السنة محن عظيمة ، وقتل منهم عدة آلاف بسبب تمسكهم بإسلامهم ودفاعهم المستميت عن السنة ، مما أثر على سير الحياة العلمية ، وقد حمل ذكر كثير من العلماء الذين آثروا اعتزال الفتنة مثل "أبي محمد الورداني" ، ومع ذلك فإن هذه المحنة لم تزد أهل المغرب إلا عزيمته وصبراً واحتساباً وتمسكاً بأصول أهل السنة والجماعة وحرّموها على الفقهاء الفتوى بمذهب مالك ، واعتبروا ذلك جريمة يعاقب عليها بالسجن والضرب والقتل أحياناً ، ولم يبيحوا الفتوى إلا لمن كان على مذهبهم .

"كما منعوا علماء أهل السنة من التدريس في المساجد ، ونشر العلم ، والاجتماع بالطلاب فكانت السنة لا تقرأ إلا في البيوت خوفاً من بني عبيد فكان" أبو محمد بن أبي زيد" ، و"أبو محمد بن التبان" وغيرهما ، يأتيان إلى "أبي بكر بن اللباد" ، شيخ السنة بالقيروان في خفية ويجعلان الكتب في أوساطها حتى تبطل بالعرق من بني عبيد" (14).

واستعملوا الأدب لنصرة الفكرة والمذهب وما تبعه من تطور في أشكاله. ودوره الذي انعكس على الحياة السياسية

¹¹ أحمد أمين : ضحى الإسلام، ج1، مكتبة تحفة مصر ، ط6، 1961، ص86.

¹² نفسه، ص125.

¹³ القاضي النعمان: افتتاح الدعوة، تحقيق: فرحات الدشراوي، الشركة التونسية للتوزيع تونس، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط2، 1986م ، ص250.

¹⁴ القاضي عياض: ترتيب المدارك وتقريب السالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، نشر مكتبة المشكاة، وزارة الأوقاف المغربية، ج4، ط د، ص430.

والحضارية بالمنطقة ، بالرغم من أنّ الأدب لا يخصص حقله إلا في بيئة يسودها الدعة و الاطمئنان والاستقرار. وهذا يعود إلى أنّ الخصومات المذهبية اشغلت الناس عن التفرغ إلى الأدب والفن أي النشر الفني ، ولا يكون الأدب رفيعا إلا إذا قام على اتجاهات أدبية مستمدة من حياة راقية زاهية في بيئة مطمئنة هادئة .

والباحث في أمر هذا الصراع يشده ذلك التنكيل الذي كان يسلطه العبيديون على العلماء وحتى العامة من الناس الذين جبلوا على دينهم الصحيح الذي لا تشوبه الشوائب ، فأطلق العبيديون أيديهم في العلماء قتلا مما ولد في نفوس من تبقى كرها ومقتا وصل إلى حمل السلاح في مرات عديدة و اعتبروا أن جهادهم خير من جهاد الكفار، حيث يرى أحد أئمة إفريقية أن الخوارج مع انحرافهم هم من أهل القبلة بعكس "بني عبيد" قال "الذهبي": «خرج أبو إسحاق الفقيه مع "أبي يزيد"، وقال: هُم أهل القبلة، وأولئك ليسوا أهل قبيلة، وهم بنو عدو الله، فإن ظفرنا بهم، لم ندخل تحت طاعة أبي يزيد، لأنه خارجي» (15).

-موقف أهل السنة ممن دخل في نصره وتأيد العبيديين :

نسوق في هذا فتوى أطلقها الأئمة الذين عاصروا الدولة العبيدية ، في حق حكامها ومن دخل معهم من المشايخ والخطباء، الذين خطبوا لهم على المنابر، ودعوا لهم بالتوفيق، وأوهموا الناس أنهم أئمة هدى وعدل، وأنهم في دين الإسلام، ولم يكشفوا للناس حقيقتهم، وأنهم في دين الشيطان، وقد تركت التعليق عليها وبيان بعض الشبه التي يوردها بعضهم بعد الانتهاء من سرد هذه الفتوى كما ذكرها "القاضي عياض" (16). في كتابه "ترتيب المدارك وتقريب المسالك" (17). «سئل ابن عذرة» - (أبو بكر إسماعيل بن إسحاق بن عذرة الأنوي): أتى عليه ابن أبي يزيد في كتابه -، عن خطباء بني عبيد، وقيل له: إنهم سنية. فقال: أليس يقولون: اللهم صل على عبدك الحاكم وورثة الأرض؟ قالوا: نعم.

¹⁵الذهبي: سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ج15، ط9، 1413هـ، ص155.

¹⁶الإمام عياض بن موسى بن عياض السبتي: ت544هـ

¹⁷ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك: يُعدُّ أكبر موسوعة تتناول ترجمة رجال المذهب المالكي ورواة "الموطأ" وعلمائه، وقد استهأ الكتاب بيان فضل علم أهل المدينة، ودافع عن نظرية المالكية في الأخذ بعمل أهل المدينة، باعتباره عندهم من أصول التشريع، وحاول ترجيح مذهبه على سائر المذاهب، ثم شرع في الترجمة للإمام مالك وأصحابه وتلاميذه، وهو يعتمد في كتابه على نظام الطبقات دون اعتبار للترتيب الألفبائي؛ حيث أورد بعد ترجمة الإمام مالك ترجمة أصحابه، ثم أتباعهم طبقة طبقة حتى وصل إلى شيوخه الذين عاصروهم وتلقى على أيديهم. والتزم في طبقاته التوزيع الجغرافي لمن يترجم لهم، وخصص لكل بلد عنواناً يدرج تحته علماءه من المالكية؛ فخصص للمدينة ومصر والشام والعراق عناوين خاصة بها، وإن كان ملتزماً بنظام الطبقات (ينظر مقدمة الكتاب: القاضي عياض، المصدر السابق، نفس المكان).

قال: أرأيتم لو أنّ خطيباً خطب فأثنى على الله ورسوله، فأحسن الثناء ثم قال: أبو جهل في الجنة.. أيكون كافراً؟ قالوا: نعم. قال: فالحاكم أشد من أبي جهل « (18).

قال "عياض": « وسئل "الداودي" - من كبار فقهاء القيروان - عن المسألة، فقال: خطيبهم الذي يخطب لهم ويدعو لهم يوم الجمعة كافراً يُقتل، ولا يُستتاب، وتحرم عليه زوجته، ولا يرث ولا يورث، وماله فيء للمسلمين، وتعتق أمهات أولاده، ويكون مدبروه للمسلمين يعتق أثلاثهم بموته، لأنه لم يبق له مال، ويؤدي مكاتبوه للمسلمين، ويُعتقون بالأداء ويرقون بالعجز، وأحكامه كلها أحكام الكفر، فإن تاب قبل أن يُعزل، إظهاراً للندم، ولم يكن أخذ دعوة القوم قبيل توبته، وإن كان بعد العزل أو بشيء منعه لم تُقبل، ومن صلى وراءه خوفاً أعاد الظهر أربعاً، ثم لا يقيم إذا أمكنه الخروج، ولا عذر له بكثرة عيال ولا غيره» (19). ثم ذكر "عياض": "أبو محمد الكبراني" وهو من علماء القيروان، «سئل عمن أكرهه بنو عبيد على الدخول في دعوتهم أو يُقتل؟ قال: يختار القتل، ولا يعذر أحد بهذا إلا من كان أول دخوله البلد قبل أن يعرف أمرهم، وأما بعد فقد وجب الفرار، ولا يُعذر أحد بالخوف بعد إقامته لأن المقام في موضع يُطلب من أهله تعطيل الشرائع لا يجوز. وإنما أقام فيها من العلماء والمتعبدين على المباينة لهم، يخلو بالمسلمين عدوهم فيفتنوّهم عن دينهم. قال "عياض": وعلى هذا كان "جبله بن حمود" ونظرائه: ربيع القطان، وأبو الفضل الحمصي، و مروان ابن نصر، و السبائي، والجبيني يقولون ويفتون» (20).

قال: « "يوسف بن عبد الله الرعيني" في كتابه: أجمع علماء القيروان، أبو محمد بن أبي زيد، وأبو الحسن القاسبي، وأبو القاسم بن شلبون، وأبو علي بن خلدون، وأبو محمد الطريقي، وأبو بكر بن عذرة: أنّ حال بني عُبيد حال المرتدين والزنادقة، فحال المرتدين بما أظهروه من خلاف الشريعة، فلا يورثون بالإجماع. وحال الزنادقة، بما أخفوه من التعطيل، فيقتلون بالزنادقة. قالوا: ولا يُعذر أحد بالإكراه على الدخول في مذهبهم، بخلاف سائر أنواع الكفر، لأنه أقام بعد علمه بكفرهم فلا يجوز له ذلك، إلا أن يختار القتل دون أن يدخل في الكفر، وعلى هذا الرأي كان أصحاب "سحنون" يفتنون المسلمين» (21). قال "أبو القاسم الدهاني": وهم بخلاف الكفار، لأن كفرهم خالطهم سحر، فمن اتصل بهم

¹⁸ القاضي عياض: المصدر السابق، ج4، ص274.

¹⁹ نفسه، ج4، ص274.

²⁰ القاضي عياض: المصدر السابق، ص276.

²¹ نفسه، ص277.

خالطه السحر والكفر. ولما حُمل أهل طرابلس إلى بني عُبيد، أضمروا أن يدخلوا في دينهم عند الإكراه، ثم ردُّوا من الطريق سالمين. فقال « ابن أبي زيد القيرواني "هم كفار لاعتقادهم ذلك" »⁽²²⁾.

وأما كفر خطبائهم فهو: لدعائهم لهؤلاء الكفار بما يوهم أنهم مسلمون. قال "ابن عذرة": أليس يقولون: "اللهم صلِّ على عبدك "الحاكم"⁽²³⁾ وورثة الأرض؟" فالدعاء لهؤلاء الكفرة بما يدعى به للمسلم هو كفر وردة. وكذلك لأننا أمام أقوام يجبون التأويل البعيد، فقد يقولون: "ربما كان هؤلاء الخطباء على عقيدة العبيديين". وما أكثر "ربما" و"قد" في مثل هذه المواطن. فالجواب في نفس الفتوى حيث قيل "لابن عذرة": « إنهم سُنيّة (أي على عقيدة أهل السنّة، وليسوا على عقيدة العبيديين). فلم يناقشهم "ابن عذرة" في عقيدتهم، إنما ناقشهم بما قالوه وأظهروه للسامعين لهم في خطبهم حيث قال: « رأيتم لو أن خطيبا خطب فأثنى على الله ورسوله فأحسن الثناء ثم قال: أبو جهل في الجنة، أياكون كافرا؟ قالوا: نعم. قال: فالحاكم أشد من أبي جهل »⁽²⁴⁾. ولنتذكر أنّ كفر "الحاكم" من أجل تعطيله الشريعة، أما زندقته فمن أجل عقيدته في التعطيل، وقد يتحمل متحمل، ويرaug ثعلب فيقول: "ألا يجوز للخطيب أن يدعو للكفرة بالهداية؟". فالجواب قد تقدم بعضه، وللتفصيل إنّ الدعاء المتضمن شهادة لهم بالإسلام وتبليس حالهم على العوام بكوثهم من أهل الملة فهذا هو حكمه، مثل أن يقول الخطيب: "اللهم وفق عبدك فلان". أو قوله: "اللهم انصر أمير المؤمنين" وأمثالها من الأدعية. لكن لا يمنع أن يقول: « اللهم اهد دوسا واثت بهم مسلمين »⁽²⁵⁾. وللتكرار فإننا أمام قوم يجبون التأويل والثعلبة، فقد يتمسكون ببعض الألفاظ في الفتوى كقول "ابن عذرة": "أليس يقولون: "اللهم صل على عبدك الحاكم وورثة الأرض؟" فيقولون: إنما كُفّر "ابن عذرة" هؤلاء الخطباء لأنهم أوهموا الناس بنبوة "الحاكم" حين قالوا: اللهم صلِّ على عبدك الحاكم.

²² نفسه، ص 277.

²³ الحاكم بأمر الله (386-411هـ) وولاه أبوه العهد سنة 383هـ، وولى الخلافة الفاطمية بمصر سنة 386هـ، واستمر في الحكم إلى شوال سنة 411هـ. وكان صاحب نجوم ورسد، كان سفاكا للدماء، قتل عدا كثيرا من أهل دولته وغيرهم، أمر بسب الصحابة، ومنع الناس من صلاة التراويح، وله أوامر متناقضة طيلة حكمه (ينظر ابن حماد، أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم تحقيق وتعليق: حلول أحمد البدوي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط 2، 1984م، ص 57-68).

²⁴ الذهبي: المصدر السابق، ج 15، ص 176-177.

²⁵ أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك القسطلاني القتيبي المصري، أبو العباس، شهاب الدين: شرح القسطلاني إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، المطبعة الكبرى الأميرية، مصر، ط 7، 1323 هـ، ص 4015.

وقد ذكر "الذهبي" في "السير" صيغة الدعاء التي كان يُدعى بها للعبيدي، وهي كالتالي: « الحمد لله الذي انجلت بنوره غمرات الغضب وانقهرت بقدرته أركان النصب، واطلع بأمره شمس الحق من الغرب، و محى بعدله جور الظلمة. فعاد الحق إلى نصابه البين بذاته، المنفرد بصفاته، لم يشبه الصُّور فتحويه الأمكنة، ولم تره العيون فتصفه. ثم صلى على النبي - صلى الله عليه وسلم - ثم على أمير المؤمنين، وسيد الوصيين، وعماد العلم، وعلى أغصانه البواسق، اللهم وصل على الإمام المهدي بك، والذي جاء بأمرك، وصل على القائم بأمرك، والمنصور بنصرك، وعلى المعز لدينك، المجاهد في سبيلك. وصل على العزيز بك، واجعل نوامي صلواتك على مولانا إمام الزمان، وحصن الإيمان، صاحب الدعوة العلوية عبدك ووليك أبي علي الحاكم بأمر أمير المؤمنين»⁽²⁶⁾. والنظر في فتوى "ابن أبي زيد القيرواني" في أهل طرابلس في آخر الفتوى، وما قاله علماء القيروان: ولا يعذر أحد بالإكراه على الدخول في مذهبهم بخلاف سائر أنواع الكفر، لأنه أقام بعد علمه بكفرهم فلا يجوز له ذلك، إلا أن يختار القتل دون أن يدخل في الكفر". على هذا الرأي أصحاب "سحنون" يفتنون المسلمين.

وهذا الفقيه القيرواني "جبله" ترك سكنى الرباط، ونزل القيروان فكلم في ذلك. فقال: « كنا نحرس عدواً بيننا وبينه البحر. والآن حلّ هذا العدو بساحتنا. وهو أشد علينا من ذلك. فكان إذا أصبح، وصلى الصبح، خرج إلى طرف القيروان من ناحية رقادة، ومعه سيفه، وترسه، وقوسه، وسهامه، وجلس محاذياً لرقادة، نهاره. إلى غروب الشمس. ثم يرجع إلى داره. ويقول أحرس عورات المسلمين منهم. فإذا رأيت منهم شيئاً، حركت المسلمين عليهم. وكان ينكر على من خرج من القيروان إلى سوسة، أو نحوها من الثغور. ويقول جهاد هؤلاء أفضل من جهاد أهل الشرك»⁽²⁷⁾. وقال "الذهبي": « وقد أجمع علماء المغرب على محاربة آل عبيد لما شهروه من الكفر الصراح الذي لا حيلة فيه، وقد رأيت في ذلك تواريخ عدة يصدق بعضه بعضاً. وعُوتب بعض العلماء في الخروج مع "أبي يزيد الخارجي" فقال: « وكيف لا أخرج وقد سمعت الكفر بأذني؟»⁽²⁸⁾. وخرج "أبو إسحاق الفقيه" مع "أبي يزيد"، وقال: «هم أهل القبلة، أولئك ليسوا أهل القبلة وهم بنو عبيد، وإن ظفرنا بهم لم ندخل تحت راية أبي يزيد، لأنه خارجي»⁽²⁹⁾.

²⁶الذهبي : المصدر السابق، ص154 .

²⁷القاضي عياض: المصدر السابق، ج4، ص453.

²⁸نفسه، ج 2، ص236. (ينظر هامش: أبو العرب: المصدر السابق، ص17).

²⁹نفسه، ص236.

كما نجد في دعوتهم من أوصاف وأحكام وأفكار وأدعية في خصوص الأئمة، تصل إلى حد التأليه "وقيل في سنة تسع وتسعين ومائتين: إن "عبيد الله المهدي" الزنديق سمح لأتباعه أن يغرقوا في كفرهم حتى أهوه فقد كانت أيمانهم المغلظة: "وحق عالم الغيب والشهادة، مولانا الذي برفادة"⁽³⁰⁾. وهو غلو لا يبرر فقط ميل الكتاب إلى التفخيم وجريهم وراء اللفظ الجزل، والعبارة القوية، بل هو كفر لفظي اعتقادي، وفعلا قد عاب النقاد القدامى مغالاتهم في تأليه ومدح أمراء بني عبيد وإطلاقهم لأسماء ونعوت تخص الذات الإلهية، فهذا المؤرخ "القيرواني" صاحب كتاب (الجمع والبيان) المفقود يقول: «... وهو حكم يلقي التبعية لا على الشاعر بل على المعز، الذي يشجع شعرائه وكتابه على هذا الإفراط و يستزيدهم منه»⁽³¹⁾.

كما ذكر بعض أهل التاريخ: أن "المعز" أراد إدعاء النبوة ولكنه خاف من الرعية فقد ذكر الخبر "ابن عذارى" حيث قال: «أنه وقع في المغرب حيث أذن مؤذنه فوق صومعة جامع القيروان ب: أشهد أن معداً-وهو اسم المعز- رسول الله فارتج البلد لذلك»⁽³²⁾. وهذا قول لأحد الأئمة بأفريقية يرى فيه أن الخوارج مع انحرافهم هم من أهل القبلة بعكس "بني عبيد" قال "الذهبي": «وخرج أبو إسحاق الفقيه مع أبي يزيد، وقال: هُم أهل القبلة، وأولئك ليسوا أهل قبيلة، وهم بنو عدو الله، فإن ظفرنا بهم، لم ندخل تحت طاعة أبي يزيد، لأنه خارجي»⁽³³⁾. و قال "القاضي عياض": «قال أبو يوسف الرعيني "أجمع العلماء بالقيروان أن حال بني عبيد حال المرتدين والزنادقة»⁽³⁴⁾. والمقصود بالعلماء هم: أبو محمد بن الكراني، وأبو الحسن القابسي، وأبو القاسم بن شبلون، وأبو علي بن خلدون وأبو بكر الطنبي، وأبو بكر بن عذرة).

وعموما كانت نظرة علماء المغرب لبني عبيد واضحة بينة وفي هذا يقول "الذهبي": «وقد أجمع علماء المغرب على محاربة آل عبيد لما أشهروه من الكفر الصراح الذي لا حيلة فيه وقد رأيت في ذلك تواريخ عدة يصدق بعضها

30 محمد الصلاحي: الدولة العبيدية في ليبيا، دار البيارق، عمان، الأردن، ط1، 1418، هـ، ص86. (ونسبه للذهبي، المصدر السابق، ج15، ص215 ولم أجد).

31 محمد يعلاوي: ابن هانئ المغربي الأندلسي - شاعر الدولة الفاطمية-، دار الغرب الإسلامي، بيروت، د ط، 1985، م، ص241.

32 ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، د تحقيق: كوليغ الآداب، مكتبة صادر، مطبعة المناهل، بيروت، د ط، د ت، ج3، ص123.

33 الذهبي: المصدر السابق، ص155.

34 القاضي عياض: المصدر السابق، ج4، ص720.

بعضاً»⁽³⁵⁾. وعموماً فهذه النظرة المتشددة من قبل علماء أهل السنة الذين عاصروا هذه الدولة جاءت وفقاً لما لاقوه من تهيب و قتل ومنع لممارسة شعائرهم

- وسائل أهل السنة للدفاع عن المذهب المالكي:

إن المعاني العقائدية المذهبية الشيعية، وما حملته من تأويلات مناقضة لما تعارف عليه أهل المغرب منذ الأفواج الأولى للفتحين الذين حملوا معهم هذه التعاليم الربانية بكل صفاتها ونقائها، لذلك قبلوها من دون أدنى شك بل عملوا على نشرها و الالتزام بها. لكن مع هذه الدعوات العبيدية الشيعية التي بدأت في طمس معالم الدين الصحيح ، بإدخال معتقدات خاطئة أوصلت أهل المغرب وعلمائهم إلى تكفيرهم ، وإعلان الخروج عنهم ومجاهدتهم بحد الحراب لمرات عديدة مديدة، إلا أنهم استخدموا وسائل سلمية اقناعية خاصة مع البدايات الأولى لهذه الدولة أخرى.

-الخطابة:

استخدم علماء المغرب المنابر في إلقاء الخطب الحماسية، أمام العامة الذين ما انفكوا يجتمعون حول علمائهم ومصدر قوتهم، ورافعي لواء الدفاع عن الإسلام، لشحذ الهمم، ورفع المعنويات التي سببتها المعاناة والتي لا يمكن تصورها التي لقيها أهل المغرب في ظل الدولة العبيدية وطيلة القرن الرابع الهجري ، حملتهم بدورهم إلى انتظار الفرصة السانحة لانقضاض على مذهب الدولة الحاكمة التي بدلت الشرائع وأذاقت العلماء و العامة العلقم . فعندما أراد "أبو يزيد مخلد بن كيداد الخارجي" حرب بني عبيد سنة(333هـ-944م) (36). لم يتردد العلماء في المسير معه لكن "ابن كيداد" غدر بهم وطلب من جنده في المعركة أن يتركوا علماء القيروان للأعداء فاستشهد منهم خمسة وثمانون، من بينهم "أبو العرب" العالم والمؤرخ السي (260هـ-333هـ) (37). فتسارع الفقهاء والعباد في أهبة كاملة للقتال. أملاً في الإطاحة بالحكم العبيدي الجائر « وحتى من تخلف منهم لعذر "كأبي ميسرة" الذي صده عماء مشى بالقيروان شاهراً سلاحه مع جموع الثائرين، واجتمعوا للخروج ونادوا في الناس أن اخرجوا للجهاد» (38) .

³⁵الذهبي:المصدر نفسه،ص165.

³⁶ابن حماد : المصدر السابق،ص36.

³⁷أبو العرب: طبقات علماء إفريقية وتونس ،تحقيق علي الشابي و نعيم حسن اليافي،الدار التونسية للنشر،تونس،المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر ط2
1985م،ص20-26. (ينظر:القاضي عياض: المصدر السابق،ج4،ص453-455).

³⁸أبو العرب: المصدر السابق، ص 19-20. (ينظر: القاضي عياض: نفسه، ج 2، ص 225).

وكانت الخطابة الوسيلة الوحيدة لشحذ الهمم ورفع العزائم لما لها من قوة التأثير، وشديد الإحساس بها من طرف المستمع، الذي يلتف حول المجالس التي تعقد فيها، وتناقش المواقف الطارئة والخطيرة. مما يكسبها طابعا مميزا ووقعا هائلا.

ولعل أبرز الخطب السنوية هي "الأحمد بن محمد بن أبي الوليد"⁽³⁹⁾ والذي خطبهم خطبة بليغة في هذا الموقف العصيب وقبل خروجهم لقتال جند بني عبيد. فحرّض الناس على الجهاد وأعلمهم بما فيه من الثواب العظيم، وتلا الآية: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (*) دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (*) ﴿⁽⁴⁰⁾. وسب بني عبيد، ولعنهم وأغرى بهم. وقال: « يا أيها الناس.جاهدوا من كفر بالله وزعم أنه رب من دون الله، وغيّر أحكام الله، وسب نبيه، وأصحاب نبيه، وأزواج نبيه... »⁽⁴¹⁾. وقال: « اللهم إن هذا القرمطي الكافر المعروف بابن عبيد الله، المدعي الربوبية جاحد لنعمتك، كافرا بربوبيتك، طاعن على أنبيائك ورسلك، مكذبا بمحمد نبيك وخيرتك من خلقك، سابا لأصحاب نبيك وأزواج نبيك أمهات المؤمنين سافك لدماء أمته، منتهكا محارم أهل ملته اجتراء عليك واغترارا بجلتك اللهم فالعنه لعنا وبيلا، وأحزه خزيا طويلا، واغضب عليه بكرة وأصيلا، وأصله جهنم وساءت مصيرا، بعد أن تجعله في دنياه عبرة للسائلين، وأحاديث للغابرين. وأهلك اللهم متّبعه، وشتت كلمته، وفرق جماعته، واكسر شوكته، واشف صدور قوم مؤمنين. ثم نزل فصلى بهم الجمعة »⁽⁴²⁾.

لعنا إذا أمعنا التدقيق في هذه المقتطفات التي بقيت من خطبة" ابن أبي الوليد" التي تمثل لنا كثيرا من العناصر الخطابية عامة، والخطابة المعارضة للسلطة العبيدية خاصة. وفي هذه كلّها يحسن أن يكون الموضوع قريبا من السامع وأن يكون الأسلوب الذي يجري فيه ذلك يشبه ما خطب به القاضي " أحمد بن بقي بن مخلد" (ت332هـ) وقال: « اللهم، وقد دعاك هذا نفر من عبادك الساعون لثوابك المجتمعون ببابك، فرعا من عقابك

³⁹الذهبي: المصدر السابق، ج15، ص155.

⁴⁰النساء: الآيتين 95-96.

⁴¹الدباغ: معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تح: ماضور، مكتبة الخانجي، مصر، والمكتبة العتيقة، تونس، د ط، د ت، ج3، ص39.

⁴²الدباغ: المصدر السابق، ص40.

وطمعا في ثوابك ، وقبلهم من الذنوب ما أحاط به علمك وأحصاه حفظك . فعد عليهم فبموقفهم هذا برحمة توجب لهم جنتك وتجيرهم من عذابك»⁽⁴³⁾. وقد حمد الله وأثنى عليه ، و شكره على نعمه ، والحمد والشكر متلازمان .

كما تضمنت جانبا من الوعظ والإرشاد ، والحث على الجهاد ، فشرح الخطيب في الخطاب بعد توطئة شدد فيها على مدى قوته وجبروته ، و ينبه من خطورة الوضع وصعوبته وبعد الاستطراد الوصفي للحوادث المتعاقبة... يصل إلى الإصلاح المنشود الذي أصبغه بالحجة والدليل الواضح واستخدم البيان وأسلوب التأثير عن طريق عرض صور لمناظر رهيبة ومواقف عظيمة ويدعو من خلالها إلى الجهاد ، وتلقي هذه الخطبة مع سابقاتها من حيث معانيها . فهي مثلها في توجيه اللوم والعتاب من جهة ، واستخدام أسلوب الاستنهاض للجهاد والحث عليه .

المناظرات:

ومن وسائل علماء السنّة في الذب عن عقائد السلف وسيلة المناظرة والجدل وإفحام الخصم أمام عوام الناس ، فقد شهدت القيروان مجالس يمكن اعتبارها انعكاسا لظروف سياسية ومذهبية ، فخلال الحكم العبيدي الفاطمي تعرض فقهاء المالكية للمضايقة من قبل العبيديين ودعوتهم لاعتناق المذهب فعل على بعض الأعمال التي قام بها الجند تنفيذاً لأوامر صادرة لهم ولم يرض عنها الفقهاء.

ومع حدة الصراع الفكري العقائدي، خاصة من جانب الشيعة الإسماعيلية» الذين تأثرت قضاياهم المذهبية العقائدية بما تسرب إليها من الديانات والعقائد الأخرى من: مجوسية و مانوية ، ومزدكية...»⁽⁴⁴⁾ ألحقت وأدخلت على صفات الله والأئمة المعصومين حسب اعتقادهم، وفكرة المهدي المنتظر وغيرها من الأفكار والمعتقدات التي سبق الإشارة إليها. هذه الأفكار التي شغلته عن أنفسهم لاقت صد من لدن أهل السنّة ، الذين ما لانوا وما استكانوا في مواجهة هذه الأفكار والمعتقدات في مجالس التناظر بكل ما أوتوا من ثقافة وقوة .

فبرزت منهم فئة نصرت المذهب المالكي بمناظرة علماء العبيديين ، حيث اتبع الفاطميون المناظرة كوسيلة لإقناع الناس بتغيير مذهبهم والانضمام إليهم ومن مناظراتهم في القيروان.

⁴³ نفسه ، ص62.

⁴⁴ الشهرستاني : الملل والنحل، تحقيق: أحمد فهمي، دار المعارف، القاهرة، ج1، د ط، 1967م، ص49-53.

و لقد كانت المقاومة الجدلية، هي أقوى و أوسع أنواع المقاومة التي قام بها علماء السنة ، ضد الشيعة ، وقد سطع في سماء هذه المساجلات و المناظرات العقديّة عدد كبير من العلماء ، كانو لسان أهل السنة الناطق و الذاب عن بيضة و حوزة هذا الدين ، ومنهم:

"ابن البردون" (ت 399هـ) ، كان قوي الحجّة في الجدل ، لم يكن أحد أقوى منه في الجدل و المناظرة و إقامة الحجّة على المخالفين

ومنهم الإمام "محمد الرقادي القيرواني" (ت 316هـ)، الذي كان من أئمة هذا الشأن ، وكانت له في هذا الميدان مقامات مشهودة ، ذب فيها عن مذهب أهل السنة. و ممن لمع نجمه أيضا في سماء هذه المساجلات ، "عبدالله بن التبان" (ت 371هـ)⁽⁴⁵⁾. فقد كان هذا الشيخ ، من أشد الناس على بني عبيد وأكثرهم مقاومة لهم ، ومن مواقفه المشهورة ، التي ذكرت في التراجم، أنه كان يوما جمع من أصحابه وكان يوم عاشوراء ، فلما رأى جمع بني عبيد بكى ، فقيل له : ما يبكيك ، فقال " و الله ما أخشى عليهم الذنوب ان مولاهم كريم ، وإنما أخشى عليهم أن يشكوا في كفر بني عبيد فيدخلوا النار"⁽⁴⁶⁾.

وقد اشتهر بسبب مناظراته لبني عبيد ، حتى ضربت إليه أكباد الإبل من الأمصار المختلفة لعلمه بالذب عن مذهب أهل السنة ، وقد حفظت لنا المصادر مناظرة عن أفضلية فاطمة أم عائشة ، فقالوا له ، أيهما أفضل فاطمة ، أم عائشة ، رضي الله عنهما ، فقال عائشة ، وذلك لأمرين اثنين.

الأمر الأول : أن عائشة إذا مات عنها زوجها فلا يجوز أن تتزوج غيره بعده أبدا، بينما فاطمة لها أن تتزوج عشرين بعده.

الثاني: فلأنها مع النبي صلّى الله عليه وسلم في منزلته يوم القيامة، وفاطمة مع علي رضي الله عنهما في منزلته يوم القيامة، ودرجة النبي صلّى الله عليه وسلم أعلى درجة من علي - رضي الله عنه -⁽⁴⁷⁾. وكان فضلا عن براعته في الجدل و المناظرة ، شجاعا مقداما ، ومما ذكره الدباغ ، من أن "عبدالله المعروف بالختال" ، صاحب القيروان قد شدد في طلب العلماء ،

⁴⁵ هو أبو محمد عبد الله بن إسحاق بن التبان ، كان من العلماء الراسخين و الفقهاء المبرزين ضربت إليه أكباد الإبل من الأقطار لعلمه بالذب عن مذهب أهل السنة ، برع في علوم القرآن و الفقه و النحو و اللغة و الطب ، وكان مستجاب الدعوة ، توفي سنة 371هـ. (ينظر: الدباغ: معالم الإيمان، ج 2، ص 432).

⁴⁶ الدباغ: معالم الإيمان، ج 3، ص 91.

⁴⁷ الدباغ : معالم الإيمان ، ج 3، ص 93.

فاجتمعوا بدار "ابن أبي زيد القيرواني" فقال لهم "ابن التبان"، أنا أمضي إليه أبيع روعي من الله دونكم لأنه إن أتى عليكم وقع على الإسلام وهن عظيم⁽⁴⁸⁾، وفعلا ذهب اليه و أقام عليه الحجة هو وجماعته الذين جاء بهم ليناظروه.

وبعد أن أفحمهم وهزمهم في مناظراته، أرادوا استمالاته، ولكنه أبا، وقال: شيخ له ستون سنة يعرف حلال الله وحرامه ويرد على اثنتين و سبعين فرقة، يقال له هذا؟ لو نشرتموني في اثنتين مافارقت مذهبي⁽⁴⁹⁾. ومنهم أيضا الإمام "عمرو ابن هارون الوراق" (ت 379هـ)، فقد كان هو الآخر فارسا من فرسان هذا الميدان، ونجما ساطعا في سماء هذه المساحات، وكان هذا الفن من فنون العلم أكثر علمه.

وأبرزهم على الإطلاق هو "ابن الحداد" لم يخف من هيبة السلطان أو بطش العبيديين، بل كان رابط الجأش في المناظرة واثقا من قوة حجته وقدرته، قال عنه "أبو الأسود موسى القطان"⁽⁵⁰⁾، لو سمعتم "سعيد بن محمد" في تلك المحافل -ويقصد مناظراته للشيعة- وقد اجتمع له جهازة الصوت و فخامة المنطق وفصاحة اللسان و صواب المعاني لتمنيتم ألا يسكت⁽⁵¹⁾. واشتهر ابن الحداد بمناظراته الكبيرة مع الشيعة ودعاتهم وذكرت مناظراته في "رياض النفوس" للمالكي، و طبقات الحشني وغيرهما.

و السبب في مناظرات "ابن الحداد" للشيعة، لما ملك بنو عبيد القيروان أظهروا تبديل معتقد أهل البلد و أجبروا العامة على مذهبهم بادئ الأمر بالمناظرة و إقامة الحجة، مع التهديد و القتل، فلجأ أهل البلد إلى أبي سعيد و سألوه التقية فأبى، وقال: "قد اربيت على التسعين، ومالي في العيش حاجة ولا بد لي من المناظرة عن الدين، وأن أبلغ في ذلك عذرا"⁽⁵²⁾، ففعل وصدق، وكانت المجالس التي تعقد، منها ماهو عام يحضره جمع كبير من علماء أهل السنة، على اختلاف مذاهبهم الفقهية و دعاة الشيعة، ورغم اختلاف مذاهب أهل السنة إلا أنهم انبروا كلهم للدفاع عن السنة مترفعين على حساسيتهم، وخصوصا تمهم الفقهية ومنها ماهو خاص يحضره عالم سني واحد مع داعي من دعاة الشيعة، وفي أغلب الأوقات يحضر أبو عبدالله الشيعي أو أخوه أبو العباس.

⁴⁸ نفسه، ص 113.

⁴⁹ نفسه، ص 115.

⁵⁰ أبو الأسود موسى بن عبد الرحمن القطان: كان فقيها حافظا بارع الحفظ ثبنا صالحا، سمع من محمد ابن سحنون و أبي العرب وغيرهما، توفي بنة 306هـ (ينظر: الديباغ: معالم الايمان، ج 3، ص 335-339).

⁵¹ الديباغ: نفسه، ج 3، ص 309.

⁵² نفسه، ج 2، ص 298.

كانت مواضع هذه المجالس، تدور في أغلبها حول القضايا الخلافية بين السنة و الشيعة إلى يوم الناس هذا، فالشيعة يحاولون إثباتها بحشد إبياتهم وأدلتهم وبراهينهم، ومن جهتهم أهل السنة يفندونها ويدحضون حججهم بأدلة و براهين مقنعة.

ومن هذه المواضع ، إمامة علي -رضي الله عنه- و إمامة المفضول مع وجود الفاضل ، وصلاة التراويح ، ونكاح المتعة... وغيرها من المواضع ، التي يسعى الشيعة إلى اثباتها بالأدلة المتوفرة عندهم.

وكانت هذه المجالس كثيرة ومتعددة ،وقدرها بعضهم بأربعين مجلسا.

وقد لقي نتاج ذلك الموقف عدد من العلماء الاضطهاد، والموت أحيانا بسبب شهوة الحكم العبيدي المذهبي المقيت، وتسلطهم في فرض آرائهم ومذاهبهم على السكان ، « وقد قيل أن العبيدين قتلوا من أجله عددا من علماء القيروان قارب خمسة وثمانين عالما ،وهذا سنة(336 هـ) بعد ثورة الخارجي "مخلد بن كيداد " وحدها»⁽⁵³⁾.

-التأليف:

واللافت للنظر أنّ كلّ ألوان الاضطهاد والتعسف الذي لاقاه المغاربة عموما على أيدي العبيدين لم يتنهم عن التمسك بالمذهب المالكي ،واعتبروه جزء من قوميتهم ودرعا يقيهم طعنات الزيغ والضلال ، ولذلك نراهم يتهافتون على العلوم النقلية ويحاولون التأليف فيها ويرفضون كلّ نظرة عقلية أو نزعة فلسفية واعتبروا المعتزلة كفارا والخوارج والشيعة مارقين .

والحقيقة أن نتاج علماء أهل السنة العلمي والثقافي والأدبي، خاصة ما تعلق بالخطب والمناظرات، في تلك الفترة المبكرة من عهد الدولة العبيدية وخلال فترة العهد كله، هو ثمرة غرس ترعرع في ظلال العصر الأغلي السني، وتطور واكمل في العهد العبيدي. مما ساهم بشكل كبير في حفاظ وتمسك أهل المغرب بمذهبهم ودينهم الصحيح الذي ورثوه عن الفاتحين.

و يمكن لنا أن نذكر أبرز مصنفات الفقه المالكي في هذا القرن، وأشهرها: كتب "محمد بن سحنون" منها: كتاب "النوازل" أو المسائل، وجعل كل حادثة من الحوادث التي تجري في عصره، مع تصورها بالملايسات العارضة محلاً للنظر في

كيفية انطباق حكم المقرر في "المدونة" على تلك الصورة، بحيث إن حكمها يؤخذ من المصدر الذي هو من أثر دور التفرع.

وسار على نفس النهج الإمام "محمد بن أبي زيد القيرواني" في كتابه "النوادر والزيادات" مستفيداً مما سلفه، وما دون من كتب في المذهب، كـ "المدونة" لسحنون، و"الواضحة" لابن حبيب، و"المستخرجة" للعتبي، و"الموازية" لابن المواز. وهذا ما أكده "ابن خلدون" بقوله: "وجمع "ابن أبي زيد" جميع ما في الأمهات من المسائل والخلاف والأقوال في كتاب "النوادر"؛ فاشتمل على جميع أقوال المذهب، وفروع الأمهات كلها في هذا الكتاب، ونقل "ابن يونس" معظمه في كتابه على المدونة. وله الرسالة (في الفقه)، مناسك الحج (السنن-العقيدة)، كما اختصر "ابن أبي زيد" المدونة في كتابه "المختصر"، ولخصه أيضا "أبو سعيد البرادعي" من فقهاء القيروان في كتابه المسمى بـ "التهذيب"، وألف "ابن يونس" كتابه "الجامع" على غرار كتاب "النوادر والزيادات". و"لأبي العرب" مجموعة من الكتب الفقهية منها: كتاب الوضوء والطهارة، وكتاب الجنائز، وذكر الموت، وعذاب القبر، وكتاب عوالي حديثه، وكتاب في الصلة و "الأبي بكر اللباد": كتاب الطهارة، كتاب الآثار و الفوائد في عشرة أجزاء. و "للقابسي علي بن محمد المعروف بابن القابسي" الممهد في الفقه، المنقذ في شبه التأويل، كتاب رتب العلم و أحوال أهله. "وابن البرادعي" له كتاب مشهور هو "التهذيب" "أبو الحسن اللخمي" له "التبصرة على المدونة" و الفقيه الفضل بن سلمة البجائي، له كتاب "جامع المسائل الموازية"، و"المستخرجة". "الشيخ أبو جعفر أحمد بن نصر الداودي المسيلي" له عدة كتب منها: شرح الموطأ، الواعي في الفقه، النصيحة في شرح البخاري. "أبو الحسن المنمر" "الكافي في الفرائض".

هذه بعض الوسائل الأساليب والطرق التي قام بها علماء أهل السنة في الذود والدفاع عن عقائد المسلمين، فكان هذا دورا مجيدا، وجهادا حميدا في الدفاع عن الإسلام والهجوم على بني عبيد بالسنان والقوافي التي كانت على بني عبيد أشد من السيوف القواطع.

ومن خلال ما سبق نجد أنّ بقاء جمهور العامة في المغرب على المذهب السني بفضل علماء المالكية وتضحياتهم، ووقوفهم موقف الصد والرفض للدعوة العبيدية وبشتى الوسائل.

-أبرز أعلام المذهب المالكي:

نشط الفقهاء بالمغرب الإسلامي في هذا القرن ، على دراسة الفقه المالكي وتدرسه و التأليف فيه ، و عملوا جاهدين على رد محاولات الطمس التي انتهجها العبيديون والرامية إلى محو المذهب المالكي، بالرغم من الاضطهاد الكبير الذي لحقهم جراء الذود عن عقيدة أهل السنة ومذهبهم ، فظهر عدد كبير من أعلام الفقه أحرار ، ومجتهدون في المذهب ، مع العلم أن منتصف هذا القرن يعد الحد الفاصل بين دور الأئمة أصحاب المذاهب المجتهدين و تلاميذهم الأولين المقلدين لهم ، والدور الذي أحلده الفقهاء إلى العكوف على مذهب المجتهدين السابقين و خاصة الأئمة الأربعة، ومنه تخرج فقهاء تناولوا المذهب المالكي بالتدوين و الشرح ، وأقفلوا باب الاجتهاد. فشاع التقليد و كثر الجدل بين علماء المذاهب للاستطالة أمام العلماء .و بذلك عد القرن الرابع حدا فاصلا بين العلماء المتقدمين و أول المتأخرين.

وهناك عوامل عديدة أدت إلى ظهور جيل من الفقهاء و العلماء ، الذين جادت قرائحهم وتبحروا في صنوف العلوم الشرعية المختلفة في المغرب الإسلامي في هذه الفترة الزمنية. ومن هذه العوامل الصراع المذهبي بين العبيديين دعاة الإسماعيلية و أهل السنة أتباع المذهب المالكي ، ومحاوله الانتصار لكل فكرة من خلال التأليف وغيره من الأشكال العلمية الأخرى، ومحاوله صون المذهب المالكي و فقهه من خلال التأليف لكي لا تأتي عليه الدعوات المغرضة من قبل الشيعة، حركة الهجرة من المغرب إلى المشرق و الأندلس ، حيث المذهب المالكي و الاستزادة في العلم ، دخول بعض العلماء المشاركة و الأندلسيين حاملين معهم تجارب فكرية و ثقافية و علمية معفرة بعقب المشرق و الأندلس ، هذه العوامل و أخرى هي التي ساهمت و أوصلت الفقه المالكي إلى درجة النضج في القرن الرابع الهجري ، بعد أن مر بمراحل اتسمت بفقه مختلط بالحديث و التفسير في بداياته الأولى، إلى فقه متميز على يد ثلة من الفقهاء الكبار أمثال : "علي بن زياد" تلميذ مالك ، و "أسد بن الفرات" و "سحنون" و ابنه محمد و تلاميذهم.

ولقد حظي هذا القرن بنخبة طيبة من الفقهاء والعلماء ، وسنورد طائفة من أبرز العلماء ومصنفاتهم التي وضعت في هذا القرن، لنمثل بها عن حجم الحركة الفكرية و الفقهية وتنوعها، منهم:

-ابن أبي زيد القيرواني (310-386 هـ)⁽⁵⁴⁾: هو أبو محمد عبد الله بن أبي زيد عبد الرحمن القيرواني النفري ، نسبة إلى قبيلة نفزة أو نفزاوة ، ولد بالقيروان سنة (310 هـ).رحل ابن أبي زيد إلى المشرق وحجّ ومع من العلاء ثم عاد إلى القيروان ، وقضى فيها معظم حياته.و لقد عنى شديدة من الدولة العبيديّة التي سادت في المغرب الإسلامي وكانت وفاته في سنة 386 هـ

كان ابن أبي زيد من علماء القيروان في زمانه ، وهو الذي لخص مذهب الإمام مالك ، فسهل بذلك انتشاره ، فأصبح يعرف "بمالك الصغير" ،وهو مصنف مكثّر له من الكتب :الرسالة (في الفقه) ،كتاب النوادر(جمع فيه ما في أمهات الكتب الفقه على المذاهب المختلفة من المسائل ومن أقوال الفقهاء واختلافهم)،مناسك الحجّ (السنن-العقيدة)،مختصر المدوّنة.كما كان له شعر بعضه شعر ديني.

-أبو العرب (250-333 هـ)⁽⁵⁵⁾: محمد بن أحمد بن تميم بن تمام بن تميم التميمي رافع لواء التاريخ والأنساب:كان جده تمام بن تميم، من أمراء إفريقية. وكان أبوه أحمد ممن سمع من شجرة بن عيسى، وسليمان بن عمران، وبكر بن حماد. وسمع أبو العرب من جماعة أصحاب سحنون، وأكثر رجال إفريقية. قال أبو عبد الله الخراط: كان رجلاً صالحاً، ثقة عالماً بالسنن، والرجال، من أبصر أهل وقته بها، كثير الكتب،حسن التقييد،كرم النفس والخلق. كتب بخطه كثيراً في الحديث والفقه.يقال إنه كتب بيده ثلاثة آلاف كتاب وخمسمائة. وشيوخه تنيف على عشرين ومائة شيخ. سمع منه أبو محمد بن أبي زيد، والحسين بن سعيد، وابناه، و الشذوذى، والناس. وكان حافظاً للمذهب، معتنياً به. وغلب عليه الحديث والرجال، وتصنيف الكتب والرواية، والإسماع. وألّف طبقات علماء إفريقية، وكتاب عباد إفريقية، ومسند حديث مالك، وكتاب التاريخ، سبعة عشر جزءاً وكتاب مناقب بني تميم، وجزأين في موت العلماء، وكتاب المحن، وكتاب فضائل مالك، وكتاب فضائل سحنون، وكتاب الوضوء والطهارة، وكتاب الجنائز، وذكر الموت، وعذاب القبر، وكتاب عوالي حديثه، وكتاب في الصلّة، وغير ذلك. ودارت عليه محنة من الشيعي. حبسه وقيده مع ابنه، مرة بسبب بني الأغلب، والتهمة في السلطان.

⁵⁴ابن أبي زيد القيرواني: متن الرسالة، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، د ط، د ت، ص1-4. (ينظر أيضا:أبو العرب: طبقات علماء إفريقية وتونس، تحقيق علي الشابي و نعيم حسن الباي،الدار التونسية للنشر،تونس،المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر ط2، 1985، ص125. القاضي عياض: ترتيب المدارك وتقريب السالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، ج2، نشر مكتبة المشكاة، وزارة الأوقاف المغربية، د ط، د ت، ص415).

⁵⁵أبو العرب: المصدر السابق، ص12. (ينظر أيضا:القاضي عياض:المصدر السابق، ج2، ص414-437. الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج15، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط9، 1419هـ. ص395).

وتوفي فيما قيل: يوم الأحد لثمان من ذي القعدة، سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة. وكان له ابنان: أبو العباس تمام، سكن إفريقية. وأبو جعفر تميم، سكن الأندلس، وروى بها كتب أبيه وغيرها.

-ربيع القطان (288 هـ-334 هـ) ⁽⁵⁶⁾: هو أبو سليمان ربيع بن عطاء الله ابن نوفل ينتسبون إلى قريش صلبه. وكان ربيع من الفقهاء المعدودين والعباد المجتهدين، والنسك أهل الورع والدين. كان عالماً بالقرآن وقراءته، وتفسير معانيه. حافظاً للحديث. عالماً بمعانيه، وعلمه ورجاله. وغريبه. معتمياً بالمسائل والفقهاء. وكان عالماً بالوثائق، حسن الخط، أخذها عن أبي زياد. وكان عالماً باللغة والنحو. وكان يؤلف الخطب والرسائل، ويقول الشعر. وكان لسان إفريقية في زمانه في الزهد، والرفائق. وكان ممن عقد الخروج لغزو الروافض. وجد في ذلك، فقتل شهيداً رحمه الله تعالى، في وادي الملح، في حصار المهديّة، لسنة أربع وثلاثين وثلاثمائة. من كلامه: الدنيا أمل ووجل، والآخرة جزاء وعمل، ومتوسط بينهما أجل. ومن كلامه: لا ترض على نفسك في أمسك. وعظة لك، في سرور غيرك بالتغيير. وفي صفاته بالتكدير. وفي عزّه بالذل. وفي عقده بالحل. وكان يقول: أخبركم بالحازم العازم، الذي قال: هاؤم اقرأوا كتابيه. إني ظننت أني ملاقي حسابية .

-أبو جعفر أحمد بن نصر الداودي الأسدي ⁽⁵⁷⁾: من أئمة المالكية بالمغرب والمتسعين في العلم المجيد للتأليف، كان فقيهاً فاضلاً، عالماً، متفنناً، مؤلفاً جيداً. وكان يُنكر على معاصريه من علماء القيروان سُكناهم في مملكة بني عبيد وبقائهم بين أظهرهم، وأنه كتب إليهم مرة بذلك فأجابوه: اسكت لا شيخ لك.

-أبو عثمان سعيد بن محمد المعروف بابن الحدّاد (219 - 302 هـ) ⁽⁵⁸⁾: من أشهر فقهاء المالكية في الجدل والمناظرة، كان واسع الثقافة كثير الحفظ للشعر العربي مشهور ببراعته في الحوار، والظفر بخصومه، يستخدم هذه الطاقة الجدلية العاتية لإبطال عقيدة الإسماعيلية. أخذ عن سحنون ثم مال إلى المذهب الشافعي، كان عالماً بالعربية واللغة وكان الجدل أغلب الفنون عليه، وقال عنه أبو العرب: كان عالماً باللغة نافذاً في النحو وكان يقول الشعر ويجيده، فمن ذلك (بسيط):

مَازَلْتُ مِنْ حَادِثَاتِ الدَّهْرِ مُعْتَجِبًا* حَتَّى انْقَضَى عَجْبِي بَعْدَ الثَّلَاثِمِائَةِ

⁵⁶القاضي عياض:المصدر السابق، ص 481.

⁵⁷ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج5، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي، دار الأفاق الجديدة، بيروت، د ط، د ت، ص 236. (ينظر أيضا: القاضي عياض:المصدر السابق، ص 484).

⁵⁸أبو العرب: المصدر السابق، ص 249.

لا بَارَكَ اله في عامٍ وفي سنةٍ* كانت لِشَرِّ زمانٍ كانَ مَحْتَبِئَةً

وله تأليف كثيرة واشتهر بمناظرته للشيعة ومواقفه منهم معروفة. وتوفي سنة 302هـ.

-إسحاق السبائي (أبو إسحاق الفقيه)⁽⁵⁹⁾: كان أبو إسحاق من العلم بالله وأمره في خطة، ما انتهى إليها أحد من أهل وقته، حتى لقد كان من بالقيروان من أهل العلم والدين، إنما ينظرون إليه، إذا نزلت الحوادث والمعضلات. فإن أغلق باب، فعلوا مثله. وإن فتح، فعلوا مثله. فلما اشتد أمر بني عبيد، وفتح دعائم أبوابهم، ودعوا إلى كفرهم، قال أبو إسحاق لأصحابه: افتحوا باب داري، نأخذ في ذمهم، والتحذير منهم. توفي الشيخ أبو إسحاق، سنة ست وخمسين وثلاثمائة. مولده سنة سبعين ومائتين.

-أبو القاسم بن محرز⁽⁶⁰⁾: من علماء القيروان نبغ واشتهر في فن المناظرة وخاصة في مسائل الخلاف.

-أبو بكر ابن اللباد (ت 333هـ)⁽⁶¹⁾: كانت منزلته في الفقه المالكي كبيرة، ضربت إليه أكباد الإبل من الأمصار لعلمه بالذات عن مذهب أهل السنة. وكان فصيح اللسان، رقيق القلب، واشتهر بحفظه وسعة علمه، وجدّ في نشر المذهب المالكي بالمغرب، وسجنه الشيعة لغضبهم عليه، واستمر في نشاطه العلمي والديني إلى أن توفي سنة (333هـ). وأشهر مؤلفاته هي: فضائل مالك بن أنس، فضائل مكة، كتاب الطهارة، الآثار و الفوائد في عشرة أجزاء.

-أبو ميمونة دراس بن اسماعيل الجراوي الفاسي (ت 357هـ)⁽⁶²⁾: هو أول من أدخل فقه مالك إلى المغرب الأقصى بعد أن كان أهله على مذهب "أبي حنيفة" وكان من الحفاظ المعدودين ومات بفاس.

-القابسي علي بن محمد المعروف بابن القابسي⁽⁶³⁾: كان واسع الرواية عاما بالحديث و رجاله ، فقيها ، أصوليا ، متكلم ، مؤلفا جيدا ، له تأليف كثيرة منها: الممهد في الفقه ، المنقذ في شبه التأويل ، كتاب رتب العلم و أحوال أهله.

⁵⁹القاضي عياض:المصدر السابق، ج4، ص420. (ينظر أيضا: أبو العرب : المصدر السابق، ص511 .)

⁶⁰الدباغ: معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان: تكلمة أبي القاسم بن عيسى بن ناجي، ج3، تحقيق: محمد ماضور، مكتبة الخانجي، مصر-المكتبة العتيقة تونس، د ط، د ت، ص229).

⁶¹الذهبي : سيرة أعلام النبلاء، ج7، ص148. (ينظر أيضا:القاضي عياض:المصدر السابق، ج2، ص315 رايح بونار : المرجع السابق، ص180)

⁶²الذهبي: تاريخ ووفيات المشاهير والأعلام، تح: عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، ط2، 1414 هـ ، ص 32-37.

⁶³رايح بونار :المغرب العربي تاريخه و ثقافته ، دار الهدى عين مليلة ، ط3، 2000 ، ص181-182.

-أبو القاسم خلف بن أبي القسم الأزدي المعروف بابن البراذعي⁽⁶⁴⁾: كان من كبار أصحاب "ابن أبي زيد القيرواني"، وأبي الحسن الفاسي، ولم تحصل رئاسة بالقيروان لتساهله مع الشيعة، فكرهه علماء القيروان وأفتوا بعدم قراءة كتبه ما عدا التهذيب لشهرة مسائله، وخرج من القيروان واستقر بمصر إلى أن توفي فيها.

-أبو القاسم محمد بن عامر بن إبراهيم الفزاري (ت 345 هـ)⁽⁶⁵⁾: ولد وعاش بالقيروان كان أبوه شاعرا ونحويا من أهل القيروان وتقلد جباية الخراج للعبديين في بعض أعمال الساحل الإفريقي فهرب بالمال إلى مصر الإخشيدية، وعرف عنه أنه كان مناهضا للعبديين إما مباشرة كالهجاء الصريح، وإما بواسطة الإشادة بفقهاء القيروان و صلحائها، ومات في خلافة المعز سنة "345هـ" ومما قال في القصيدة الرائية في هجو بني عبيد(وافر):

عجبت لفتنة أعمت وعمت * يقوم بها دعي أو كفور

-أحمد الوهراني (ت 341 هـ)⁽⁶⁶⁾: وهو أحمد أبي عون قاضي من علماء الفقه المالكي ولد ونشأ وتعلم في وهران ولي القضاء فيها، رحل إلى قرطبة وتوفي بها.

-إبراهيم بن عبد الرحمان التنسي (ت 387 هـ)⁽⁶⁷⁾: عالم بالفقه المالكي ولد وتعلم بتونس، رحل إلى الأندلس واستقر بمدينة الزهراء، وأخذ عن مشاهير علمائها ثم ولي الإفتاء بها، وبقي هناك إلى أن وافاه أجله.

-قاسم بن موسى الضني (ت 390 هـ)⁽⁶⁸⁾: عالم بالحديث، من فقهاء المالكية ولد ونشأ وتعلم بمدينة الجزائر، رحل إلى الأندلس وجلس إلى التدريس في قرطبة روى عنه بعض علماء الأندلس وأثنوا عليه.

⁶⁴أبو العرب: المصدر السابق، ص 159.

⁶⁵نفسه، ص 161. (ينظر أيضا: محمد البعلاوي: الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي، ص 207-213).

⁶⁶عمار هلال: العلماء الجزائريون في البلدان العربية فيما بين القرنين (14/3هـ)، د م ج، الجزائر د ط، 1995م، ص 13.

⁶⁷نفسه، ص 13.

⁶⁸عمار هلال: المرجع السابق، ص 14.

-زكريا بن أحمد الغساني (ابن الأشج) (310 - 393 هـ) ⁽⁶⁹⁾: عالم فاضل ، محدث ولد ونشأ وتعلم بتهرت رحل مع عائلته إلى الأندلس سنة (326 هـ) ومنها رحل إلى المشرق ، التقى هناك المتنبّي وأخذ عنه ديوان شعره رواية ، ثم عاد إلى قرطبة حيث توفي هناك .

-أحمد بن قاسم بن عبد الرحمان التاهرتي (أبو الفضل) (309 - 395 هـ) ⁽⁷⁰⁾: عالم بالحديث ، حافظ له ، من الزهاد ، ولد في تهرت، ورحل مع أسرته إلى الأندلس سنة (317 هـ) وهناك تعلم ، ونشأ ، وأخذ على أشهر علماء عصره وعرف بالتقوى و الورع و الصلاح.

-الوهراني عبد الرحمان بن عبد الله بن خالد، المعروف بالتجاني وبابن الخزار توفي (409 هـ) ⁽⁷¹⁾: من كبار فقهاء المالكية في عصره ، عارف بالحديث ، ورجاله ، له عدة اهتمامات بعلوم عصره ، ولد ونشأ وتعلم في وهران ، ثم رحل إلى تونس وأخذ عن علمائها ومصر فالحجاز والعراق و خراسان ، والجبل و بيشاور دامت رحلته ما يربو عن عشرين سنة روى عنه الإمامان "ابن عبد البر" و "ابن حزم".

-أحمد بن علي بن أحمد أبو العباس البغائي (345 هـ - 401 هـ) ⁽⁷²⁾: من أكابر علماء المالكية في الفقه من أهل باغية حيث ولد ، ثم رحل إلى المشرق ، واستقر بمصر و دخل الأندلس سنة 376 هـ و جلس إلى التدريس في قرطبة استادبه المنصور بن أبي عامر لابنه عبد الرحمن رقي إلى خطة الشورى في عهد المؤيد بالله هشام بن الحكم سنة 400 هـ .

-الطنبني محمد بن الحسين أبو عبد الله (300 - 394 هـ) ⁽⁷³⁾: وهو فقيه و شاعر بليغ ، أديب بارع ينحدر من بيت أدب وفضل وحكم ، من أهل طنبنة ، عاصمة الزاب واليها ينسب ، رحل إلى الأندلس سنة (323 هـ) فكان

⁶⁹ نفسه، ص14.

⁷⁰ نفسه، ص 15.

⁷¹ نفسه، ص14.

⁷² يحي بوعزيز: أعلام الفكر و الثقافة في الجزائر المحروسة، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1985، ص30. (ينظر أيضا: عمار هلال : المرجع السابق، ص 15).

⁷³ عمار هلال : المرجع السابق، ص16.

من شعراء الخليفة الأموي الأندلسي "الحكم بن عبد الرحمان" (300 - 366 هـ) ، قال عنه أحدهم " لم يصل إلى الأندلس أشعر منه ، توفي بقرطبة وشاهد جنازته عبد المالك بن أبي عامر " .

-سعيد الوهراني (ت 375هـ)⁽⁷⁴⁾: محدث وفقه ، عالم من كبار فقهاء وقته تعلم بوهرا ، رحل الوهراني إلى المشرق واتصل بكثير من علمائه ودخل بغداد وأقام مدة طالبا للعلم ثم قفل راجعا إلى مسقط رأسه حتى تفرغ للتدريس .

-أبو الحسن اللخمي (ت 472هـ)⁽⁷⁵⁾: فقيه مالكي محدث و أديب ، له تأليف عديدة منها : التبصرة على المدونة ، من طلبته : أبو عبد الله المازري و أبو فضل النحوي .

-الفضل بن سلمة البجائي (ت 319هـ)⁽⁷⁶⁾: فقيه حافظ ، من أهل بجاية ارتحل القيروان و أخذ عن شيوخها ، ذاع صيته فقصده طلبة العلم من كل مكان و أخذوا عنه ، وتخرج على يديه طائفة من رجال الفقه منهم: أبو سلمة ، سعد بن عثمان ، و محمد الخولاني ، و أبو العرب ، من تأليفه كتاب جامع المسائل الموازية ، و المستخرجة .

- الشيخ أبو جعفر أحمد بن نصر الداودي المسيلي (ت 402هـ)⁽⁷⁷⁾: كان إماما فقيها محدثا ، مؤلفا ، له حظ من علوم اللسان ،وقف ضد الشيعة العبيدين وكفر كل من يدعو لهم على المنابر، أخذ عنه كلا من : أبو بكر بن أبي زيد القيرواني ، و أبو عبد الله البوني، من تأليفه : شرح الموطأ ، الواعي في الفقه ، النصيحة في شرح البخاري ، كتاب في تفسير القرآن اعتمد عليه "عبد الرحمن الثعالبي" في تفسيره الجواهر الحسان،وله أيضا الأصول... وغيرها، توفي بتلمسان سنة "402 هـ".

-أحمد بن خلوف المسيلي (ت 393هـ)⁽⁷⁸⁾: يكنى أبا جعفر ، يعرف بالخياط ، كان فقيها عالما بالمسائل حافظا لمذهب مالك ، حسن التكلم في الفقه ،سكن الثغر بالأندلس أعواما كثيرة مجاهدا و كان منسوبا إلى البأس ، استقر بقرطبة و بها توفي سنة 393هـ .

⁷⁴ عادل نويهيض: معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، بيروت ، ط2 ، 1980 ص 51.

⁷⁵ نفسه ، ص 184.

⁷⁶ رايح بونار :المرجع السابق،ص182.

⁷⁷ يحي بوعزيز:المرجع السابق،ص30.(ينظر أيضا رايح بونار :المرجع السابق، ص 185).

⁷⁸ يحي بوعزيز:المرجع السابق ، ص 185.

- أبو بكر الوهراني (ت430هـ)⁽⁷⁹⁾: كان فقيها محدثا جليلا متصرفا في العلوم قوي الحفظ حسن الفهم ، وكانت عنايته بالحديث أكثر من غيره ، توفي سنة 430هـ.

- إبراهيم بن محمد الشيباني⁽⁸⁰⁾: الكاتب ، من كتبه "سراج الهدى" في معاني القرآن و إعرابه، و"مسند في الحديث"، و "قطب الأدب" و"لقط المرجان".

- أبو الحسن المنمر: (ت430هـ)⁽⁸¹⁾: من طرابلس ولد سنة 348هـ ، ونشأ بها حافظا للقرآن ، ارتحل بعدها إلى المشرق ، وعاد إلى موطنه فكان من أعيان العلماء و مشاهير الفضلاء متقنا لعلم الحديث و النحو و اللغة و له تأليف منها، "الكافي في الفرائض" ، توفي بطرابلس سنة 430هـ.

- أبو جعفر أحمد بن خلف الأجدابي(ت390هـ)⁽⁸²⁾: فقيه بارع و أديب متميز ، كان صالحا فاضلا جليلا ، توفي سنة 390هـ.

- أبو علي المسيلي (حسين بن محمد بن سلمون ت431هـ)⁽⁸³⁾: فقيه مالكي ، كما له اهتمامات أخرى بعلوم عصره ، و لد ونشأ بالمسيلة ، ثم رحل إلى لاندلس فولاه سليمان بن الحكم الشورى بقرطبة ، وتوفي بها .

و من خلال هذه النماذج لأعلام المغرب التي حاولنا أن نبرز أهمهم و أعظمهم و أن نبين مدى سعة هذا القرن بأعلامه الأفاضل، و بتراجمنا لهذه الطائفة من العلماء الفقهاء نعطي تصورا مقبولا للحركة الفكرية و الفقهية في القرن الرابع الهجري ومن خلالها أبرزنا أهم من عمل على ترسيخ المذهب المالكي، ومنه حاولنا الكشف عن الجهد العظيم الذي أخذه علماء المغرب على عاتقهم لحفظ وصون الموروث الحضاري للأمة و المتمثل في المذهب المالكي و فقهه، ومن خلال إنتاجهم التأليفي في هذا المجال.

⁷⁹ نفسه ، ص278.

⁸⁰ نفسه ، ص278.

⁸¹ نفسه ، ص278.

⁸² يحي بوعزيز: المرجع السابق ، ص278.

⁸³ عمار هلال، المرجع السابق، ص19.

ومن هنا فقد حاولنا أن نحدد أهم المراحل التي مر بها الفقه المالكي في المغرب الإسلامي منذ الفتح الإسلامي إلى القرن السادس الهجري تقريبا، وذكرنا أهم أعلام المذهب المالكي و أبرز محطات حياتهم العلمية، وأهم تأليفهم في القرن الرابع الهجري، وبينا أن دخول الفقه خصوصا و شتى العلوم عموما ميدان التدوين، والتأليف وأصبح أداة بواسطتها يتم جمع وتسجيل التراث وحفظه من الضياع والنسيان لما شهدته الفترة من حروب وفتن شغلت الناس عن التفكير والحفظ.

__ كانت غاية العلماء والفقهاء من مصنفاتهم ومؤلفاتهم المختلفة الفقهية خاصة ، تعليمية تربوية دعوية للأحادية المذهبية، ولاشك أنه لو كتب لبلاد المغرب أن تتمتع بحقبة طويلة من الاستقرار والأمن اللذين هما أساس كل عمران ورخاء وشرط كل نهضة في العلوم ،لأمكن له أن يبلغ درجة عالية من التحضر والتفوق العلمي و الفكري، ويمكننا أن نصل إلى مجموعة من النتائج ، أهمها:.

- تعرض فقهاء المذهب المالكي على يد العبيديين وأعاونهم إلى شتى صنوف الضغط والقمع والترهيب؛ من سجن وقتل وتعذيب وتهديد... فصمدوا وتحملوا، حتى ذهب العبيديون، وبقي المذهب المالكي قويا راسخا.

- كانت المناظرات و الخطب من أهم وسائل الدعوة إلى المذهب المالكي بالإضافة إلى حاجاتهم الاجتماعية التي تستدعي النظم الدينية لتنظيم حياتهم المضطربة وترسيخ أصول المذهب، وتغذي روحهم المحتاجة لغذاء الدين.

-معظم ما وصلنا كان يمثل جزءا بسيطا، في حين لم يصلنا إلا القليل من إنتاجهم على الرغم من إشارات المصادر لعدة مؤلفات ولعدة مؤلفين.

- عُد القرن الرابع الهجري حدا فاصلا بين العلماء المتقدمين و أول المتأخرين.

- عرفت الحياة العقلية في القرن الرابع الهجري نشاطا أكثر، وتركت لنا مناظرات بين الفقهاء السنيين ودعاة الشيعة وأشهرها، مناظرات "سعيد بن الحداد". الفقهية.

- كانت غاية العلماء والفقهاء من مصنفاتهم ومؤلفاتهم الفقهية تعليمية تربوية دعوية ، أساسها حفظ المذهب المالكي من الضياع ، بعد الهجمة الشرسة من قبل العبيديين .

-انصراف المغاربة آنذاك إلى العلوم النقلية والإبداع فيها ،وتقصيرهم في العلوم النظرية الفلسفة وفروعها.

